



سِرُّ الرُّمح الملتهب

محمّد علي قطب

الدّار النّموذجيّة للطّباعة والنشر
صيدا - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة الأسرار الإسلامية



سر الرمح الملتهب

إعداد

محمد علي قطب

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

شركة أبناء شريف الأنصاري

فروعها المكتبة العصرية
الدار النموذجية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - صيدا - ص.ب ٢٢١

تلكس: LE ٢٠٤٢٧ـ LE ٢٩١٩٨ SCS

بسم الله الرحمن الرحيم

رُمْحٌ مُلْتَهِب!!!

ملتهب الرأس، يتوقّد ضراماً(1)، ويشْتَعِلُ أُواراً(2)، وتتراقَصُ ذُؤاباتُهُ(3) كأنَّها رؤوس الشياطين...

جاءَ من أَعْلى!!!

من فَوْق، مُخْترقاً طيَّات السَّماء وطبقات الفَضاء...، تَحْملُهُ بِعَزْمٍ وقُوَّةٍ يدٌ طاهِرَةٌ كريمة لِتَغْرسه في قلْبٍ شِرّير، فتخمد فيه أنفاسه وتَقْضي عليه، وتخلّص الناس من شروره وآثامِهِ،

ما جاءَ عَفْواً...

ولا نَزَل هكذا ببساطةٍ، بل بطَلَبٍ وَنداء...

---

(1) الضّرام: الاشتعال.

(2) الأوار: اللّهب.

(3) ذؤاباتُهُ: أَطْرافه.

طلبٌ فيه عُمْق الإيمان وصِدْقُ اليقين

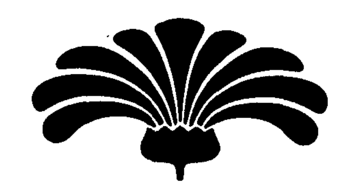
ونداءٌ يحْمل رِقَّة الاستغاثةِ بالرحْمٰن

تُرى ما هُوَ سِرُّ هذا الرَّمْح؟

ومَنِ المنادي؟

وأَيْن؟ وكيْف؟

تَعالَ إذاً - يا بُنَيَّ العزيز - لِنبْحَثَ عن ذلك، ونكشف [سِرّ الرُّمْح الملْتهب]





الزمانُ والمكان

مَـرَّت أَحْداثُ القِصَّـةِ منذ زَمَنٍ بعيـد، منذ مئـاتِ السّنين، وعلى التَّحْديد قُبَيْل هجرة سيِّـدنا رسُـول الله ﷺ من مكّة المكرمة» إلى «المدينة المنوّرة»...

وبَطَلُها هُوَ سَيِّدنا «زيْد بن حارثة» ـ رضي الله عنه ـ، مـــوْلى «خدَيجة بنت خُوَيْلدٍ» ـ رضي الله عنها ـ ، ثمَّ موْلى رسولِ الله ﷺ، بَعْد زواجِهِ من «خديجة»، حيْث وهبتْه له ـ ... وتلْك قِصَّـةٌ أُخْرى.

ولقـد وقعت تِلْك الأَحْداث، أحـداث قِصَّة [سِرّ الرمْح الملْتهب]؛ بيْن «مكّة» و «الطائف»...

والْبَلَديْن من أعظم وأشْهَر بلاد «الحجاز»، الأولــى «أُم القُرَى» فيها «بَيْتُ الله الحـرام» ـ (الكعبـة)؛ (أوّل بَيْتٍ وُضِـعَ للنـاس)؛ فهي قُــدْس أقْداس العــرب؛ والثّانية: آشتهرت بالموْقِعِ والمُناخ والناس...

فقد كان موقعها متميزاً. . .، فوق رأْس جَبَلٍ عالٍ، فيها الينابيع العذْبة، والأشجار المثْمرة، مُناخها لطيفٌ صيْفاً باردٌ شتاءً، وأهلها وسُكّانها من ذَوي الثّراء. . . والبأْسِ. . . والاعْتداد بالنَّفْس، والطريق ما بَيْن «مكة» و «الطائف» وعْرٌ شديد الوعورة، يمْضي بيْن شِعاب الجبال الصَّخْريَّة مُلْتوياً، وتكْتنفُه الْأَشْجار البريَّة، مُوحِشٌ مخيف. . . وطويل. . .، وَتَكْثُر فيه المغاور والكُهُوف، والحيوانات المُفْترسة.

وأَنْتَ ـ يا عزيزي ـ تعرف أَنَّ أَهْل «مكة» وسُكانها في ذلك الحين هُم ـ قبيلةُ «قُرَيْش»، أعْظم وأكبر القبائل العربية، وأَخْطرها شَأْناً. . .

أما سُكّان «الطائف» فهُمْ قبيلة «ثَقيف». . .

والآن هيّا معاً نَتَعرَّف على الْأَحداث الْمُثيرة، ونكتشف السِّرّ، [سِرّ الرُّمْح الْملتَهِب]!!!



فِي السُّــوق

أصواتٌ تتعالى وَترتفع، ونداءاتٌ تَتَردَّد، وضجيج وعجيج، وزحامٌ هائل، وأنواع شَتّى من العروض والبضائع تملأُ السّاحة الرحْبَة الْفَسِيحة، وأَصْحابُها مِنْ ورائها يُنادون على بضائِعِهم، مُبيّنين جَوْدَتها وفُرْصَة سِعْرها وَثَمَنها لإغراء الْمُشْترين...

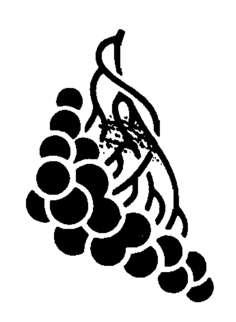
والمشتَرُون يَقِفُون ويُساوِمون ويُفاصلون في الْأَثْمان...، فإِن اتّفقُوا مع البائع آشْتروا، وإِلّا مضوا إلى بائعٍ آخر...

حَرَكَةٌ دائبة دائِمَة...

إِنَّهُ سُوق «الطائف»، حَيْثُ يأتيه الناس من بَدْوٍ وحضَرٍ ليَتَزوّدوا، يَأْتونَهُ من كُلّ مكانٍ، من أقاصي شِبْه الجزيرة العربيّة، وكأَنَّه موْسم، من المواسم وفرْصةٌ لا تُعَوَّض.

وهـا هُـوَ «زَيْـد» يَتَنَقـلُ بَيْن البـائعين، وَيَفحص البضـاعة المعـروضة، إِنَّـهُ شابٌ في ريْعـانِ الشَّباب، أَسْمَر شَديد السُّمْرة، تشِعُّ عَيْناهُ ببريقٍ من نُور الإِيمان، ويَتّقِدُ عَـزْماً وحَزْماً وفُتُوَّة. . .

كان الوقْتُ ضُحىً، وقـد آشْتَدَّتْ حـرارة الشَمْس المْلْتَهِبـة، لا يلطِّفُ من قَسْوتها إلّا هبّاتُ النَّسيم العليل التي اشتهرتْ به «الطائف». أما «زيْد» فقد تبلَّل عَـرَقاً وهو يَتَنقَّل بَيْن البـائعين، يُريـدُ أَنْ يُنْهي، وعلى جناح السُّرْعة، مـا جاءَ من أَجْلِهِ. . .، وتَبْـدو حبَّاتُ الْعَـرَق على جبينِهِ الأَسْمر كاللُّؤْلُؤِ المنْثُور، أَوِ النَّجوُم الساطعة في ليْلةِ المحاق[1].



---

(١) ليلة المحاق: الليلة التي يختفي فيها القمر تماماً آخر الشهر.

المساوَمَةُ والاتِّفاق

ونظر «زَيْد» من بعيد إلى صُبْرة[1] شعير فَوْق حصير، تَتَوَهَجُ تَحْت أَشِعَّة الشّمْس كأنها الذَّهَبُ الإبّريز[2]، فَشدَّت آنتباهَهُ، ورأى فيها بُغْيَتهُ. . . ، فتَرَك البائِعَ الذي كان يقف عِنْدَهُ ومضى نَحْوَ صاحِبِ الشَّعير الآخر الذي أَعْجبهُ. . .

وراح يُساومُهُ على الثَّمَن. . .

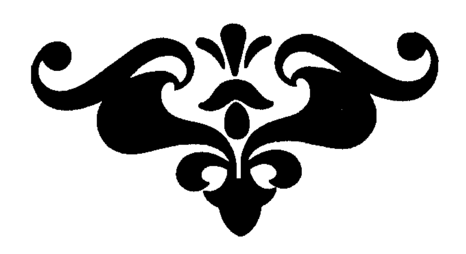
لقد طلب البائع سِعْراً أعلى من الآخر، ولكنَّ شعيرَهُ أَجْود، والفرْق لَيْس كبيراً جدّاً. . . ، ولئن آتَّفَق «زيد» مع البائع، وآشترى، فإنها تكُونُ فُرْصَةً له بالْعَوْدَةِ من «الطائف» هذه اللَّيْلة. . . فَيكْسب الوقْت. . .

---

(١) الصُّبْرة: الكوْمة.

(٢) الإبريز: الصافي.

هذا ما حدَّث بِهِ نَفْسه . . .
فَتَشجَّع «زيْد» ودَفَعَ الثَّمَنَ المطلوب .
وكانت الكمِّيَـةُ المشْتراةُ تُقَدَّرُ بِحِمْل جَمَل . . .



أَيـنَ الـمُـكـاريّ؟

وسأل البائِع «زَيْداً»:

ـ وأَيْن بَعِيرُك الذي سَوْف تحْمل عليه الشَّعير؟

قال «زَيْد»:

ـ لقـد جِئْتُ مِنْ «مكّة» على أَتـانٍ[1] لي، وأُريـدُ مُكارياً يَنْقُلُ لي بضاعتي، وأَدْفَعُ له ما يُريـد، ويُرْضي الحقّ...

فقال البائع:

ـ إنّي أَعْرِفُ مُكاريّاً حاذِقـاً، جوّاب آفـاق، يَعْرِفُ كُـلَّ المسالـك، والدُّروب، شُجـاعاً لا يخشى شيْئـاً، وأَغْلَبُ الظَّن عِنْدي أَنَّـه الآن في «الطائف» لم يخـرج حتى مساء أَمْس منها،

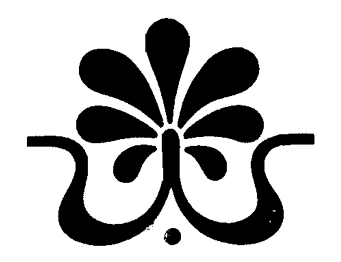
قال «زَيْد»:

(١) الأتان: أنثى الحمار.

ـ إِنَّهُ بُغْيتي وَمَطْلبي . . . فأَرْجوك يا أخا العـرب، أنْ تُسـاعِدَني في الإِتْيان به لِنَتَّفِق على الْأَجْر، ولِنَحْمل بِضاعتنا ونَمْضي . . . قَبْل حُلُولِ الظّلام . . .

فنادى التاجِرُ على غلامٍ لهُ وقال:

ـ إذْهَبْ إلى دار «حَنظَلَة» المُكاري . . . وأَحْضِرْهُ لي . . . ، فوْراً ومن غير إبْطاء . . .



وجاءَ حنظلة

وحَضَر «حَنْظَلةُ «مع الغلام» . . .

كان بدويّاً يَسْكُن «الطائف» ، وليس من أَهْلها ، ولا يَنْتَمي إلى قبيلة «ثقيف» ، نحيل الْبَدَن، طويل القامة . . . فارعاً ، مَعْرُوق[1] الْوَجْهِ ، متوسَّط الْعُمْر . . . في منتصف العقْد الخامس . . . ، تَقْدَحُ عيْناهُ المحْمرَّتَيْن بالشَّرر،

ووقف بَيْن التاجر وبَيْن «زَيْد» يُساوِمُ على الْأَجْر . . . وسُرْعان ما تَمَّ الاتّفاق ، إذْ كان «زيْد» على عَجَلٍ . . .

لكنَّ «حنظلة» قال :

ـ بشَرْط . . .

فقال «زَيْد» :

---

(١) تبدو شرايينُهُ .

ـ وما هُوَ هذا الشَّرْط يا رَجُل؟

قال «حنظلة»:

ـ أنْ أكونَ سيِّد الطريق والرِّحْلة، أتَوقّف للراحةِ، لي وَلِبعَيري متى أشاء، وفي المكان الذي أَخْتارُه...

قال «زيْد»:

ـ هذا أَمْر بسيط، لَيْس عَلَيْه خِلاف، وأَنتَ أَدْرى مِنّي بالأمكنة والأَزْمنة، فهذا عَمَلُك... وتلْك مِهْنَتك...

ظَنَنْتُ الشَّرْط الذي تُريد أَصْعب وأَقْسى، فَضَحِكَ «حَنْظَلَةُ» مُقهْقِهاً...، فكَأَنَّ قَهْقَهَتَهُ حَشْرَجَةُ أَنْفاس، أَوْ عواءُ مكْتوم...



بدايةُ الرِّحْلة

وقال «حنظلة» :

ـ مع الزَّوال سَوْف آتي بالبعير والزّاد، لِنَحْمل حِمْلَكَ يا فتى وَنَمْضي إلى «أُمِّ القُرى» . . .

وسَكَتَ قليلاً وهو يَنظُر إلى البعيد ثم قال :

ـ لقد شاقَني [البيْتُ العتيق] والطواف بِهِ . . . ومُتْعَةُ السَّمرِ في «مكّة» ، ثُمَّ أضاف :

ـ ولكن قُلْ لي : ما آسْمُك؟

فَأجابَهُ «زيْد» :

ـ «زيْد بن حارثة» . . .

ولم يَزِدْ على ذلك، لَمْ يُعْلِمْهُ بمكانتِهِ من سيِّدنا رسُول الله ﷺ . . .

وتَرَك «حَنظَلَةُ» السُّوق ومضى إلى دارِه . . .

ووضَعَ «زَيْد» الشّعير المشْترى في كيسيْن كبيرين، رَبَطَهُما جيِّداً، وأعانَهُ على ذلك التّاجر وَغُلامُه . . .

ثُمَّ جَلَسَ في ظِـلِّ شجرةٍ وارِفـةٍ، يجفّف عَرَقَـهُ، وَيسْتروح النَّسائِم، وَيتَناوَلُ قليلاً من طعامٍ كان يحمله معه في مِزادتِهِ.

وقُبَيْل وقْت الْأَصيل حضر الْمُكاريُّ «حنْظلة» وهو يجرُّ بعيره وراءَهُ، ثم أَنَاخهُ قُرْب خَيْمة البائع، وتَعاوَنَ «زيْد» وغلام البائع و «حنظلة» على رَفْع الكيسيْن فَوْق رَحْل البعير وَرَبطهما جَيِّداً...

ثم إن «حنـظلة» أمْسك بمقْـوَد الْبَعير وشَدَّهُ شَـدَّةً خاطِفَةً إليْه، وصَرَخ صَـرْخَةً تعوّدهـا بعيـرُهُ منه، فهبَّ مُنْتصِباً على قائمتيْه...، وبدا بِحِمْلِهِ الضّخْم كأَنَّهُ تلَّة أَوْ رابية...

وَوَدَّع «زيْـد» البـائِـعَ...، ونَـفَـحَ الـغـلام دِرْهمين...، ثم مضى الرَّكبُ بآتّجاهِ «أُمِّ القُرى»...



الرِّحْلَةُ الشاقَّة

كان المكاريّ «حنظلة» في الأَمام مُمْسِكاً بِزمامِ البعير، و «زيْد» من خلْفِهِ على أُتانِهِ . . .

الطريقُ جَبَليٌّ يتحدَّر من أعلى إلى أسْفل، يَمْضي بَيْن الصُّخور والأَحْجار، مُتَلَوٍّ كالأَفْعى، يَتَّسِعُ حيناً ويَنْفرِج، ثم يضيق في أكثر الأحْيان . . . والشَمس بشواظِ شُعاعها ينصَبُّ على الوُجوه فيزيدها عَرَقاً وَنَكَداً، ولا مجالَ لِظلٍ يهدّىء مِنْ أَذى الحرّ القائظ . . . ، ويخفّف من عِبْءِ المسير الشاقّ.

ومضَتَ ساعتان . . .

وها هي الشّمْس تميل نحو الأُفُق، وتهبّ بعض النّسائم الضّعيفة يستروِحُها «زَيْد» فَيَنْتعش بها، وَيَنْشَط . . .

وَهَجَم جَيْش الظلام . . .

كانت اللَّيْلة من أواخر ليالي الشهر القمريّ. . .، فالنُجوم مُتَلأْلِئة وَتُرصِّعُ صَفحة السَّماء، ولكنّها لا تَمسّ أديم الأَرْض ببصيصٍ من النُّور. . .، فالـظلام دامِسٌ واللّيْل حالك. . .

وبَـدَأتْ أَصْواتُ بعض الحيـواناتِ البـرَّية تـطرُقُ الأَسْماع وتُلِحُّ على الآذان، ثم تتسرَّبُ إلى نَفْس «زيْد» بشيءٍ من الـرَّهْبة. . .، وراح لسـانُـهُ يُـردِّد آيـاتٍ من القــرآن الكــريم، وتَسْبيحــاتٍ لله العليّ العــظيـم، يسْتعينُ بها على استعادة الطُّمأْنينة. . .

لم تَعُدْ مشقّة الطريق تُشْغِله، ولا تعثّر أَتانِهِ يُتْعِبُه، بَلْ كان جُـلّ هَمّه وخشْيتـه يَنْصَبّ باتّجـاه مصادر تلْك الأَصْوات الّتي تَشُقّ سكون اللّيْل. . .، كأنّها أَصْواتُ الشياطين تَـؤُزّ أزّاً. . .

أمـا «حَنْظَلَةُ» فكـان دائم الحُداء والغِنـاء، يُسلّي نَفْسه ويُنَشّطُ بعيره على المسير، يُوَقِّع بعصاهُ الغليـظة التي يتوّكأُ عَلَيْها. . .، على الأرض الصَّخْريـة، وعلى

الأحجار فوق الرِّمال. . . ، وكأنّه عازِفٌ يُناغِمُ بَيْن آلَتِهِ وصوْتِهِ. . . ، غيرْ عابىءٍ بكُلّ ما حَوْله.

لقد تَعَوَّدَ ذلك وأَلِفَه، فعمله جزء من حياتِـهِ. . . ومن المفارقات أن «زيْداً» كان في نَجْوةٍ تامَّةٍ عن حُداء «حَنْظلة»، غَيْر مستأنسٍ إلى ما يَقُول، ولا مُهْتم. . .



مَنْـزِلٌ لِلرّاحـة

لقد مضيا طوال اللَّيْل، وَبَلَغ الجهد بهما مَبْلَغه، وَبَدَأَتْ تلُوحُ على وَجْهِ البسيطة وأَدِيم الْأَرض ملامح الفجْر الفَضِّيّ . . .

فقال «زيْد» لِصاحِبِهِ «حَنظلة» المكاريّ:

ـ هلاّ توقَفْنا قَليلاً عن المسير لَنأخذ قِسْطاً من الراحة يا صاحِ . . . ! فإني أكاد أنامُ فوْق أَتاني!؟

فَرَدَّ المكاريُّ:

ـ أنا أكثَرُ مِنْك تَعَباً وَرَهَقاً، أنا ماشٍ وأنْتَ راكب. . . !! ولكنا لا نَسْتطيع التَوقُف هنا والنُّزُول، فلَيْس من حَجَر ولا شَجَرٍ نَسْتَظِلُّه. . . ، والشمس تكادُ تُشْرِق فتُلْهِبُ أَجْسادنا. . . ، هيّا تماسَك وتَجلَّد. . . فعمّا قريبٍ نَصِلُ إلى مكانٍ أَعْرِفُه. . . هُو بغيَتُنا. . .

فسَكتَ «زَيْد» مُكْرهاً. . .

وآنْحَـرَفَ المكاريُّ إلى يمين الـطريق... بآتّجـاهِ كثيب رمْليّ عالٍ كَأَنَّه الْجَبَل، وَتَبِعَـهُ «زَيْد»... فـإذا بِخرْبَةٍ... قائمة كالْهَيْكِلِ قد تناثَرَتْ أَحْجارهـا...، تَبْدو مع خُيُوط الشّمْس الْأُولى كالسَّراب...،

وَضَحِكَ المكارِيُّ مُقَهْقِهاً ثم قال:

- هُنا نَنْزِل لِلّراحة يا صـديقي...، وأَعِدُك أَنَّـك سوف ترتَاحُ راحةً ما عرفْتها في حياتك...!

وآنفرجَتْ أَساريرُ وَجْه «زَيْد»، وأَحَسَّ بأَن كابُوس الْقَلَق والخوْف والتّعب قد سقط عن كاهله وآنْزاح عن صَدْره...

وظَنَّ خَيْراً بالرَّجُل!!!



الجماجمُ..؟

وعند باب الْخِرْبة أَناخ المكاريُّ بَعيرَه...

وتَرجَّل «زَيْد» عَن أتانِهِ، وبادَرَ بالدُّخولِ إلى الْخِرْبة قَبْل المكاريّ، يريدُ أن يُبادِر الْأَمْن والراحة...

وما أنْ وَطِئَتْ قدماهُ الْعَتَبَة حتى آرْتَدَّ إلى الْخَلْفِ مَذْعوراً...

يا لَلْهَوْل!!!

جماجمُ بَشَرِيَّة تَنْتشر هُنا وهناك!!!، وعِظام باليِة!!!، وروائح نتنةٌ تَزْكُمُ الْأُنوف..، وبقايا أَشْلاء!!! وَخِرَقٌ ممزّقة...!

لكِنَّ يَدَ المكاريّ القويَّة الشديدة دَفَعَتْ بـ «زَيْد» إلى الدّاخل... مع صَرْخةٍ كَأَنَّها الرَّعْد القاصف:

ـ أُدْخُلْ... ولا تُعانِد...

* * *

السِّرُّ الرَّهيب

كان المُكاريُّ ـ «حنظلة» ـ يَتخذ من هذه الخَرابة مَـأْوى. . . خَفِياً عن الْأَنـظار، لا يَعرِفُـهُ أحدٌ من رُوّاد الصّحراء أو الصعاليك. . .

يُغَرِّرُ ببعض الناس وَيخْـدَعهم، ثُمَّ يَنْفرد بِهِم في ذلـك المكـان، فَيَقْضي عَلَيْهم ويسلبهـم أمـوالهـم وحُمُـولَتَهُم. . .، ثُمَّ يَمْضي في آتجاهـاتٍ مُخْتلفـةٍ، وإلى حواضر بعيدة، حَسْبما يَروُقُ له وَيَتَيَسَّر. . . !

إنّه قاتل ولِصٌ مُحْتَرِف. . . !،

لقـد مضى عَلَيْه في إجْـرامِهِ هـذا زمن طويـل لم تُكْتشَف فيه طويَّتُه، ولم يُعْرف سِرُّه. . .، يَسْطو وَيَنْهب ويَقْتُل. . .



مـــا هَـــذا ؟؟

وٱلْتفَتَ «زيْد» إلى الْمُكاريّ يَسْأله، وكلماتُه تَقْطُرُ أَسىً وٱسْتِعْطافاً:

ـ ما هذا؟

وقبْـل أنْ يُجيب، دَفَعَ بـ «زَيْـد» إلى الْأَرْض. . . فهوى ساقطاً. . . ، ثم قال:

ـ هُوَ ما ترى. . . ، ولسوْف تكون نهايتُك هُنا على نَفْس الصُّورة!!

فصَرَخ «زيْد» وَكَأَنَّه يَسْتَنْجِـد. . . ، لكَنَّ صَرْخَتَـهُ ذهَبَتْ في الفضاء الرَّحْب، وتاهَتْ في الْبَيْداء. . .

وعاد «المكاريّ» إلى الْقَهْقَهـةِ السّاخـرة. . . ، وهُوَ يَسْتَلُّ من وسطه خنجراً لامع النّصْل، ويَقُول:

ـ لقـد صَرَخـوا جميعاً مِثْلك. . . ، ونـادُوا بأَعْلى أَصَـواتهم، ولكن هَيْهـات هيهـات. . . ، إِذْ لَيْس من

سميع ولا مُجيب في هذا الْقَفْر الخالي . . . ورفع يَدَه بالخِنْجر يريد أَنْ يَطْعَنَ به «زيْداً» في صَدْره . . .

فقال «زَيْد» :

- إنّي مُسْتَسْلِمٌ لما تُريد . . . ولكنّي أرْجُوك في أَمْر . . . !

فآرْتدَّتْ يد «المكاري» بالْخنْجر وسَأَل :

- وما هُوَ هذا الأَمْر؟

قال «زيْد» :

- أصَلّي ركعتيْنِ لِلّهِ تعالى . . . قَبْل فراق الدُّنيا . . .



لقد صَلُّوا مِنْ قَبْلِك

وهنا. . .

آرْتجَّ المكانُ بصدى ضحكاتِ المكاريّ. . .، جدْران الخربة المتداعية، والكثْبان والتلال. . .، وكلُّ أثرٍ شاهدٍ وقائم. . .،

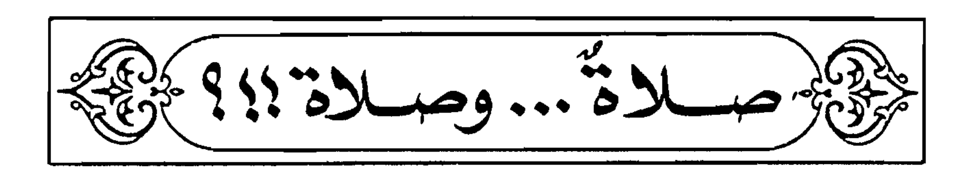
وانتفَخَتْ أَوْداجُهُ، وجحظتْ عيْناهُ. . .، وكادَ يخْتنق. . .، إذ تواصلَتْ قهقهتهُ من غَيْر آنقطاع. . .

ثم هَدَأ قليلاً وقال:

ـ تُصَلّي يا هذا. . .!! إفْعَلْ ما تشاء، فما نَفَعتْ هذه الجماجم ولا العظامُ البالية النَّخِرة صلاتها. . .

لقد صَلَّوا من قبلك، ودَعوا. . . وآسْتشفعوا. . . ولكنهم في النهاية ولُّوا غير مأْسوفٍ عَلَيْهم. . .

وَوَقَف غير بعيد والخِنْجَر في يَدهِ وعيناهُ تَقدحانِ شَرَراً. . . وقام «زَيْد» يُصَلّي. . .!



وَجَّه «زيْد» وَجْهَهُ للّذي فَطَرَهُ وفَطَرَ السماوات والأَرْض . . .

وخَشَعَ بِقَلْبه وكل جارحةٍ من جوارحه لِلّهِ تعالى . . .

وأَحسَّ كأَنَّ كيانَهُ المادّي يتلاشى . . . ، يَخفُّ . . ويذوبُ . . . ، ويَرْتفعُ . . . ثم ما عاد يخشى شيئاً . . . ، لقد زالتْ من نَفْسِهِ كُلّ أَسْباب الذُّعْر . . . ، واطمأَنَّ إلى جَنْب الله تعالى . . .

لقد أَحَسَّ وهَو في سَجدتِهِ الأَخيرة، وجبهتُه تُلاصِقُ ثرى الأَرْض أَنَّه فَوْق الثُريّا، يُحلِّق فوْق الكواكب والنجوم . . . ، وأَنَّه أَرْفَعُ وأعلى من خَصْمِهِ المكاريّ . . . بكثير، وأنه أشدّ وأقْوى . . .

يا أَرْحَمَ الراحمين!!

وما كاد يُنْهي صلاتَهُ، ويُتمُّ تَسْليمَهُ، حتى بَسَط راحتيه ورَفَعَ يَدَيْه. . . ، ودَعا قَائلاً:

ـ يا أَرْحَمَ الراحمين. . .

عندئذ حَدَث ما يُشْبهُ الزَّلْزَلة، وآرتجَّت الْأَرْض من تَحْت الْأَقْدام، وَسُمِع صَوْتٌ من خارج الْخِرْبة يَقصِفُ قَصْفَ الرُّعُود. . .

فبَادرَ المكاريُّ إلى الباب فَزِعاً. . . مرْعُوباً. . . يَنْظُرُ ويَسْتَطْلِع. . . ، فَلَمْ يَرَ شيئاً. . . ، فعادَ إلى حَيث لا يزال «زَيْد» في قُعُودِه، رافعاً يَدَيْه، وهو يكرّرُ الدُّعاءَ والنّداء:

ـ يا أَرْحَمَ الراحمين. . .

وإذا بالصَّوْتِ الصّارِخ، الذي سُمِعَ أَوّلاً، يَشْتَدُّ ويَقْوى، وكأنّهُ عند البابِ تماماً. . . ، وإذا بِبَعْضِ

حجارة جُدْران الخربة تتساقط وتهوي . . .

فَعَلَتْ وَجْهَ المكاريّ الصَّفْرة. . . ، وآتّسعت حدقتا عَيْنيه. . . ، وآرْتجفت أَطرافُهُ، وآرْتَعَدَتْ فرائِصُهُ. . . ، وجَمد في مكانه كَأَنّه النُّصُب. . .

ولكن إلى لحظاتٍ قليلة. . . ، حَيْثُ تمالَكَ نَفْسه، وآسْتَجْمَعَ ما بقي لَدَيْه من رباطة جأْش. . . ، وتَحَرَّك بِحَذَرٍ نحو الباب، وخطا خطواتٍ إلى الخارج. . . ، فَلَمْ يَرَ شيْئاً أَيْضاً. . .

إذاً. . . من أَيْنَ مَصْدر هذا الصَّوْت الرهيب؟ ومن صاحِبُهُ؟





بَيْنَ الشَّرِّ والخَوْف

كـان المكاريُّ في تلْك اللَّحـظات يَتـأرْجَـحُ بَيْنَ عامِلَيْن مَلَكا عليه نَفْسه، فبدأ مُتَشتّتاً. . . مُرْتبكاً. . .

كان عامِلُ الشّرَّ يحرِّكهُ، فهو يُريدُ أَنْ يَقْضيَ على «زيْـد» ويتَخلَّص منْـه، ويَسْتـوليَ على مـا مَعَـهُ من مـال. . . ، كما كـان يفعل في السـابق مع الآخـرين، مِمَّن آنتَشَـرَتْ عـظامُهُم في أَنْحـاء هـذه الخـرْبـة المهجورة. . .

لكنّه الآن في وضعٍ لم يَعْـرِفْهُ من قَبْـل. . . ، إنَّه في خَوْفٍ وَذُعْرٍ. . . ، يُؤخِّرُهُ ويُعيقُه عن تنفيذ جريمتِـهِ هذا الصَّوْت المرْعب المجهول. . .

إنَّ قَبْضَتَـهُ على الخنجـر ضعيفـة. . . ، وذراعـه القوَّية تكادُ تُصابُ بـالشّلل، وعينيْه زائغتيْن لا تكـادان

تسْتقـرانِ على شيْء. . . ، كـأَن كُـلّ مـا حـوْلـه يهتَـزّ ويضطرب. . .

وقدَمَيْه!!! ما بالُهما لا تُسْعفانِهِ في الحركة. . . ؟

وهَدَأ قليلاً. . . ، وراجَـعَ نَفْسَهُ وتـاريخه وأَيّـامه، وخاطَبَ ذاته:

ـ يا «حنظلة». . . إثْبت. . . ، وٱسْكُنْ. . . ، هل نَسيتَ أنـك رجُـل اللَّيْـل الـذي لا يخشى شيئـاً؟ كم تَعرَّضْت لِموْقفٍ هُوَ أشَدّ هَوْلاً مِمَا أَنْتَ فيه، فما جَزعْتَ منه ولا خشيت. . !! وَكَمْ من سَبُعٍ هاجَمَكَ فَصَـرَعْتَهُ وقَضَيْت عليه. . . !!؟

هل نسيت أنّك ابن الصَحْـراء الشْاسعـة ورائدهـا الذي لا يَضِلّ. . . ! ولا يخاف. . . !!! لعلَّ الصَّـوْت الذي سَمِعْتَهُ كان وَهْماً، أَوْ تهَيَّأَ لَكَ. . .



الرُّمْحُ الْمُلتهب

وآرْتَدَّ الْمُكاريُّ «حنْظلة» إلى داخل الخرْبة مُسْرعاً هذه المرَّةَ...، شاهِراً بِيده خنجره الذي لم يُفارِقها...، يُريد أنْ يُغمده في صَدْر «زيْد»...

ونادى «زيْد» نِداءَهُ الأخير:

ـ يا أرْحم الراحمين...

ثم كانتِ المفاجَأة...!!

إذا بِفارِسٍ فَوْق جوادٍ أشْهَب يَقتحم الْخرْبَةَ، تَقْدحُ الْأرْض ناراً تَحْتَ وَقْع حوافِرِه، يَتَوسَّطُ ما بَيْن المكاريّ «حنظلة»... و «زيد»...، يَحْمِلُ بِيمْناهُ رُمْحاً مُلْتَهِبَ الذُّؤابة، ثم يغمِدُهُ في صَدْر المكاريّ...

وسقط «حَنظَلةُ» أرْضاً، جُثّة هامِدَةً لا حراك بها... وسالت دماؤه تُخْضّبُ التُّراب والحصى...

كُنْتُ فِي السَّماءِ السَّابعة

وقال الفارس لِـ «زيْد» :

ـ لقد كُنْتُ في السماء السابِعَة عِند ندائِكَ الأَوّل، ثم أَصْبَحْتُ في السماءِ الدُّنْيا عند ندائك الثاني، وها أنا بَيْنَ يديْك لدى النداء الثّالث . . .

ثُمّ ولّى ظَهرَهُ وقد لوى عنان فرسِهِ، مُوَدِّعاً لـ «زيد»؛ وما كادَ يَبْلُغَ بالجوادِ عَتَبَة بابِ الخربة حتى آخْتَفى . . . !!

وراحَتْ نَظَراتُ «زَيْد» تتردَّدُ بَيْن باب الخرْبة تارةً وبَيْنَ السَّماءِ تارة أُخْرى . . .، وبَيْن جُثَّة الْمُكاريّ «حنظلة» مرَّة ثالثة . . .

ثُمَّ دَمِعَتْ عَيْناه خشيةً وخُشُوعاً وحَمْداً . . .

وسَجَدَ لِلّه شاكِراً فَضْله وَرَحْمَتَه، وَرَفَع رَأْسَهُ من السُّجُودِ وَهُوَ يَرِدِّد: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ الله قريبٌ من الْمُحْسنين﴾ صدَق الله العظيم.

العَـــوْدَة

وقام «زَيْد» إلى أتانِهِ فَفَكَّ وِثاقه، وشَدّ غارِبَ البعير إلى بَرْذعة الْأَتَـــان. . .، وَقبْل أن يُغـادِرَ المكان أَلْقَى نَظرَةً على جُثَّةَ المكاريّ الممدّدة. . .

الجثّة الشاهدة على عدْل السّماء. . . !!

لقـد كانتْ نهـاية الـظالم الآثم في نَفْس المكـان الذي رَتَعَ فيه من قَبْل، وأَزْهق الْأَرواح البريئة. . .

ومضى «زيْد» في طريق الْعـوْدةِ إلى «مكة»، التي أَصْبَـح على أَمْيال قـريبةٍ منهـا، مُتّحمـلاً شِـواظ لَهَبِ الشمْس ورمضاء الرِّمال ولَفْحَ الهجير. . .

كان الوقْتُ قريباً من الزّوال. . .

وما زالَ يجدُّ السَّيْر حتى دَخَلَ «أَمّ القُرى» مع دَخُول اللّيْل وهَبُوط الظلام.

ولَقْد كانَتْ حكايَةُ (الـرُّمْح المـلْتَهـب) عـلــى كُلّ شَفَةٍ ولسان؛ يَقُصُّها الْأَجدادُ لِلْأَحْفـاد، ويُسَطّرها التاريخ في أَنْصَع ِ صفحاتِهِ.

وإلى اللقاء يا ولدي العزيز مع :

[«سِرِّ الحَجَر»]




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



سلسلة الأسرار الإسلامية

- سِرّ الحجر
- سِرّ الكنز المرصود
- سِرّ السَّيف المخطوف
- سِرّ بيت الأشباح
- سِرّ الرمح الملتهب
- سِرّ السرداب
- سِرّ التفاحة
- سِرّ الأقدام والأغنام
- سِرّ السَّيل والليل
- السِّرّ تحت الشعر